دور عبد الله بن ياسين في تكوين العصبية الدينية المرابطية

أ .عدة الشيخ/ جامعة وهران

***

يعتبر الفقيه الداعية عبدالله بن ياسين هو المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين، وباني عصبيتها القائمة على التعاليم الدينية المستمدة من الكتاب والسنة الحميدة ، لكن وقبل الحديث عن دور عبدالله بن ياسينفي تكوين العصبية الدينية المرابطية،يجب في البداية أن نشير إلى الدور الكبير الذي قام به الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي صاحب الفكرة الأولى والساعي بكل قوة إلى توحيد صفوف قبائل الملثمين وتصحيح عقيدتهم، وتفقيههم في أمور دينهم ودنياهم، فهو الذي كان له الفضل في استقدام عبد الله بن ياسين إلى ديار صنهاجة ومساعدته في دعوته، حيث تعاونا الاثنان معاً في إقامة أركان دولة المرابطين، فكان الأول هو الزعيم الروحي لهذه الدولة، وكان الثاني هو الزعيم السياسي لها.فمن يكون عبدالله بن ياسين ؟.

1- التعريف بعبد الله بن ياسين وظروف اختياره للقيام بمهمة الدعوة:

هوعبد الله بن ياسين بن مكوك بن سيرين بن علي الجز ولي، أصله حسب ما ذكره البكري من بلدة - تماماناوت- في طرف صحراء غانا، درس على يد فقيه السوس وجاج بن زللو اللمطي، رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين، واجتهد في تحصيل العلوم الشرعية حتى أصبح من خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زللو، وعندما طلب الشيخ أبو عمران الفاسي من تلميذه وجاج بن زللو، أن يرسل مع زعيم قبيلة جدالة يحي بن إبراهيم فقيهاً عالماً يعلم قومه أمور دينهم، وبعد أن رفض الجميع وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين للقيام بتلك المهمة وهو العارف بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم الصحراوية[1].

ومثلما رأينا مسبقاً فعندما توفي أبوعبد الله بن تيفاوت تولى أمر صنهاجة من بعده يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي استخلف في سنة(427هـ/1035م) ابنه إبراهيم بن يحيى وارتحل إلى المشرق برسم الحج، ولما أتمَّ حجه وزيارته همَّ بالرجوع إلى بلاده ماراً في طريق عودته بالقيروان فلقي بها الفقيهأبا عمران الفاسي[2]، وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه، فرآه هذا الأخير محباً في الخير فأعجبه حاله، وسأله عن اسمه ونسبه وبلده وعن قومه وما ينتحلون من المذاهب؟ فقال:« إنهم قومٌ غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم».ثم اختبره الشيخ عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئاً إلا أنه وجده حريص على التعلم، صحيح النية.

وبعد هذا الحوار أخبر الأمير يحي الشيخ أن قومه يحبون الخير والتعلم لووجدوا من يقرئهم القرآن ويفقهم في الدين، ويدرسهم العلم وشرائع الإسلام، وطلبمنه أن يبعث معه أحد طلبته ليقوم بذلك، لكن تلامذة الشيخ استعصوا دخول أرض الصحراء، فما كان من الشيخ أبي عمران الفاسي إلاأن أرشد يحيى بن إبراهيم إلى فقيه ببلدة– نفيس-[3]من أرض المصامدة اسمه واجاج بن زللو اللمطي، وأعطاه كتاباً ليوصله إليه يأمره فيه يبعث أحد من طلبته المتميزين بالعلم والورع وحسن السياسة معه لقومه، ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام، ويفقههم في دين الله.

فسار يحيى بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل إلى الفقيه واجاج بمدينة نفيس، فسلَّم عليه ودفع إليه الكتاب وكان ذلك في رجب من عام(430هـ/1038م).فما كان من الفقيه واجاج إلا أن ندب طلبته لما أمر به الشيخ أبو عمران، وقال لابن أخيه:(يا عمر: اذهب مع هذا السيد إلى الصحراء فعلم القبائل دين الله، ولك الثواب الجزيل والشكر الجميل). فأجابه في البداية، ثم جاءه في الغد فقال:(دعني من الصحراء فإن أهلها جاهلية، وقد ألفوا ما نشئوا عليه). وكان من طلبة الفقيه رجل اسمه عبد الله بن ياسين الجزولي فقال:(أيها الشيخ أرسلني معه والله المعين)[4].

فوافق الشيخ على طلب عبد الله بن ياسين الذي كان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة، فخرج مع يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء[5]وهوالعارف بلغة وتقاليد قومه، لتبدأ دعوته من أجل تأسيس دعائم الدولة المرابطية، والشروع في الممارسة والتطبيق.

2- شروعه في مهمته الدعوية للمرابطين:

عندما وصل يحيى بن إبراهيم إلى قبيلتهبجدالةفي عام(430هـ/1038م) وبرفقته الفقيههعبدالله بنياسين الجزوليوسألوه عنالفقيههفقال:« هذا حاملسنة رسول الله(ρ)قد جاء يعلمكم مايلزم في دين الإسلام، فرحبوا بهما وأنزلوهما»[6]، وتلقاهما قبائل جدالة ولمتونة وفرحوا بمقدمهما، وتيمنوابالفقيه وبالغوا في إكرامه وبرّه،فشرععبد الله بنياسينيعلمهم القرآن، ويقيم لهم رسم الدين، ويسوسهم بآدابالشرع، فانقادوالهانقياداً عظيما،ووالوه فيابتداء الأمر براً وتكريماً[7].وأخذ الشيخ يربي أتباعه ويجتهد في تعليمهم الإسلام من كل جوانبه، وكان مما يكثر تعليمهم إياه هو إن تعارض شيء مع القرآن أو السنة فلا ينظر إليه، وأنه لابدمن المحافظة على هذه الأصول،فالقرآن الكريموالسنةالمطهَّرة هما مرجعًا لكل مسلم في التعرف على أحكامالإسلام، وصدق قول يحيى بن إبراهيم عنه حين قال وهو يعرفه علىقومه:(هذا حامل سنةالرسول عليه السلام)[8].

وفي بداية مهمته عندما أنزله يحيى بن إبراهيم معه وجد عندهتسع نسوة، فسأله عنهنَّ، فقال هذِّزوجاتي،فقال له الفقيههذا شيءٌ لا يجوز في دين الإسلام وإنما يجوزلكأربع،فأجابهبالسمعوالطاعةوفارق خمساً، ثم قالله إن جميع رؤساء جدالة ولمتونةمثلحالي،فانذِّرهموعرِّفهمحكمالله،فخرج إليهمالفقيه ومعه يحيى وجميع الرؤساءفقاللهم:(بلغنيأنكمتتزوجونبماشئتم من النساء حتىإنالشخص منكميجمع بينالعشرةوليس هذامنالسنة،وإنما السنة والإسلامأن يجمعالرجلبين

أربعنسوةحرائرولهسعةٌ فيماشاء منملكاليمين، ثم جعل يعلمهم أمور الدين ويبينلهم شرائعالسنة)[9]. وجعل يأمرهمبالمعروفوينهاهمعنالمنكر.

وتشدد ابن ياسين في نهيهموكبحهم عن الكثير منمألوفاتهم الفاسدة فاطرحوه واستصعبواعلمه،وتركواالأخذعنه لما جشمهم منمشاق التكليف.[10]، وقالوا له أما ماذكرت من الصلاة والزكاة فهو قريب، وأما قولك من قتل يُقتَل، ومن سرق يُقطَع، ومن زنا يُجلَد أو يُرجَم، فأمرٌ لانلتزمه اذهب إلى غيرنا[11].

فعزلوه من الرأي والمشورة، وقطعوا منهمالهم، وانتبهوا داره وهدموها وأخذوا ما كان فيها، وخرج عبد الله بن ياسين منهم خائفاً[12]. فشكلت تلك الحادثة الصعوبات الأولى في طريق مسيرة ابن ياسين الدعوية.

3- العقبات الأولى في طريق دعوته ولزومه المرابطة:

في بداية دعوته لقي عبد الله بن ياسين كثيرًا من الصعاب، فقد وجد أكثر الملثمين لا يصلون ولايعرفون من الإسلام إلاَّ اسمه، وعمَّ الجهل عليهم، وانحرفوا عن تعاليم العقيدة الصحيحة، وتلوثت أخلاقهم وأحكام دينهم، فاصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء والأشراف الذين ثاروا عليه وكادوا أن يقتلوه، وكنا سابقاً رأينا كيف استقبلت القبائل الصنهاجية قدوم عبد الله بن ياسين في بداية دعوته إلى أنهمسرعان ماأجهضوها، لأنهم لا يستطيعون التخلي عن عاداتهم من زنا وقتل وسرقة وقطع الطريق،ولم يتقبلواجلد الزاني وكل ما حدده الشرع وبين عقوبته. وبما أن الجهل كان منتشراً بين القبائل الصنهاجية فلابد أن يلقى ابن ياسينمعارضة لدعوته لصعوبة الالتزام بالواجبات الشرعيةالتي يؤكد عليها، وهذا حال كل الدعاة بما فيهم الرسل والأنبياء، وهي سنة الله تعالى فيخلقه الذي قال:**﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾(13).**

وبعدما أعرضوا عن دعوته وثاروا عليه،عزم عبد الله بن ياسين على الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في الإسلام آنذاك، فلم يتركه يحيى بن إبراهيم لذلك وقال له:« إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك لخاصة في نفسي، وما علي في من ضلَّ من قومي. وأشار عليه قائلاً: هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة؟.قال: ماهو؟قال: إنَّها هنا جزيرة في البحر. قال ابن خلدون: هو بحرالنيل يحيط بها منجهاتها، يكون ضحضاحاً في المصيف يخاض بالأقدام، وغمراً في الشتاء يعبر بالزوارق، قال يحيى بن إبراهيم: وفيها الحلال المحض من شجرالبرية وصيد البروالبحر، ندخل فيهاونقتاتمن حلالها، ونعبد الله تعالى حتى نموت»[14].

ويذهب فريقٌ آخر إلى أنهما لجآ إلى ديار جدالة واختارا جزيرة صغيرة تقع في مواجهة الشاطئ على مقربة من بلدة أوليل قاعدة جدالة في الخليج، وأن هذه الجزيرة يسهل الخوض فيالماء للوصول إليها إذا كان الجزر، وتركب إليها الزوارق إذا كان المد[15].

فقال ابنياسين:إن هذا الرأي حسن، فهلُّمبنافلندخلها على اسم الله، فدخلهاودخلمعهما سبعةُ نفرٍ من جدالة، وابتنى عبدالله رباطههناك،وأقام في أصحابه يعبدون الله تعالى مدة ثلاثة أشهر، فتسامع الناس بهم، فكثرالواردون عليهم والتوابون لديهم، فأخذ عبدالله بن ياسينيقرئهم القرآن ويستميلهم إلىالخير، ويرغبهم في ثواب الله ويحذرهم من عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم، فلم تمر عليه إلامدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل[16]، فسمَّاهم المرابطين للزومهم رابطته(رباطه)[17]، لتستمر دعوة ابن ياسين بعد أن اجتمع إليه من أشراف صنهاجة نحو ألفرجل.

4- تركه المرابطة واستئناف الدعوة:

إن من حكمة عبد الله بن ياسين أنه لم يكن متهوراً يلقي بنفسه إلى التهلكة، بل انتظر حتى تفقه القوم ورسخ فيهم الدين فقام فيهم خطيباً فوعظهم وشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار، وأمرهمبتقوى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيمجزائه[18].

ثم ندبهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة وقال لهم:« يا معشر المرابطين إنكم اليومجمعكثير نحو ألف رجل، ولن يغلب ألف من قلة، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقدأصلحكمالله تعالىوهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم بأنتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في الله حق جهاده. فقالوا له: أيها الشيخ المبارك مرنابما شئت تجدنا سامعين لك ومطيعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا
لفعلنا»[19].

فقال لهم:« أخرجوا على بركة الله وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوهم حجته، فإن تابواورجعوا إلى الحق وأقلعوا عمَّا هم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا، وهوخير الحاكمين»[20].

ومن هنا تبدأ الدعوة الحقيقية الجماعية(الألف رجل)بعد أن كانت فردية[21]، فسار كل رجلٍمنهم إلى قومه وعشيرته، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عمَّا هم بسبيله، فلم يرفعوا بذلك رأساً،فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه، وجمع أشياخ قبائلهم ووجوههاوقرأ عليهم حجة اللهودعاهم إلى التوبة، ورغبهم في الجنة وخوفهم من النار، وأقام ينذرهم سبعة أيام وهم في ذلككلهلايلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلا فسادا، فلمَّا يئِس منهم قال لأصحابه:«قد أبلغنا في الحجة،وأنذرنا وأعذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهمعلى بركة الله»[22].

ومن هنا يتبين لنا مدى اعتدال منهج ابن ياسين في التربية والدعوة، فهو لم يكنيحبسفك الدماء،بل كان يفضل الدعوة والإصلاح حتى يمتثل المسلمون إلى التعاليمالصحيحة للشرع الإسلاميفي حياتهم، وإن تمادوا في غيهم وإعراضهم وانعدمت معهم كلالسبل، حكَّمفيهم السيف وأعلنعليهم الجهاد إلى أن يعودوا إلى رشدهم ودينهم، فيسودالحقويمحقالباطل.

5- تخليه عن سياسة المسالمة واستعمال السيف لحماية دعوته:

بعدما يئس عبد الله بن ياسين من توحيد القبائل الصنهاجية تحت راية الإسلام عبر سياسة السلم القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب إصرارهم على الباطل، تحتَّم عليه تغيير سياسته إلى استخدام السيف، واستطاع بفضل هذه السياسة تحقيق ما أراده، بل نجده يمد نفوذه إلى قبائل المغرب ويوطد دعائم الدولة الناشئة، وبدأ بتوسيع حدودها
وزيادة نفوذها، الأمر الذي أدى إلى تفوقها خاصةً في عهدخلفائه من بعده[23].

فبعد المبادرة الدعوية الشاملة التي قام بها ابن ياسين وإخوانه المرابطين لم يعد هناك مجال للحلول الوسطى، بل أنه أصبح هناك موقفين متناقضين؛موقف جاهلي يصر على حالة التشرذم والتشتت الاجتماعي والانحطاط الخلقي، وآخر يبتغي حماية الأمة ومبادئها والعودة بها إلى طريق الحق، وتوحيد صفوفها وتحكيم الشرع الإسلامي في شؤون حياتها، وعلى هذا الأساس كانالصراع بين الموقفين وإن كان يبدو لأول وهلة أن أصحاب الموقف الباطل أطول باعاً وأكثر جمعاً، إلا أن أصحاب الحق أثبت قدماً وأشدَّ إصراراً.

وقد كانت بداية استعمال ابن ياسينللسلاح ضد الرافضين لدعوته بقبيلة جدالة فغزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المرابطين، فانهزموا بين يديهوقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسلم الباقون إسلاماً جديداً، وحسنت حالهم وأدوا ما يلزمهم من كل

مافرض الله عليهم، وكان ذلك فيصفرسنة (434هـ/1042م). ثم سارإلى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقاتلهم حتى ظهر عليهم وأذعنوا إلى الطاعةوبايعوهعلى إقامة الكتاب والسنة، وسار بعدهاإلى قبائل مسوفة فغزاهم حتى خضعوا له وبايعوه على السمع والطاعة، وحذت قبائل صنهاجة ولمتونة حذوهم في التوبة والمبايعةوأقروالهبالسمع والطاعة. وبذلك حقق ابن ياسين أولى النجاحات في طريق دعوته لتبدأ معها المعالم الأولى للدولة المرابطية في الظهور والارتسام.

وبعدها أخذ ابن ياسين ينظم جانب الدعوة والعبادةوسرعان ما التفت إلى الجانب الاقتصادي، حيث أمرهم بالصلاة والزكاة وأداء العشر، واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه ما يرفع إليه من أموال.وركز على الجانب العسكري بأن أخذ في شراء السلاح وإركاب الجيوش التيألقى على كاهلها حماية خطاب ودعوة المرابطين، وتطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد التي سيطروا عليها، ولميتجاهل أيضاً الجانب العلمي حيث:«بعث بمال كثير مما أجتمع لديه من الزكوات والأعشار والأخماس إلى طلبة العلم ببلاد المصامدة»[24].

وكانت هذه الالتفاتة نحو طلبة العلم إحدى فضائل ابن ياسين، بحيث لم يشغله عن هذا الجانب مسائل الإمارة الفتية ولا المشاركة في الأعمال العسكرية وقيادة الجيوش وإعدادها، وهو ما كان له أطيب الأثر في النفوس، ولاقت دعوته الارتياح التام في الأوساط العلمية المتمثلة بالربط والمدارس الفقهية آنذاك.

وساهم كل ذلك في التعريف بقائد المرابطين ودعوته،فأشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء وماتبعها من بلاد السودان وبلاد القبلة وبلاد المصامدة وسائرأقطار المغرب:« وأنه قام رجل بجدالة يدعو إلى الله تعالى وإلى الصراط المستقيم، ويحكم بما أنزل الله، وأنه متواضع زاهدٌ في الدنيا، وصار له ذكر في العالم، وتمكن ناموسه من القلوب، وأحبته الناس»[25]. وهو ما فتح لهم أبواب التوسع للدعوة

المرابطيةونشرها في الاتجاهات المحيطةبهمكافة. وهذه هي ميزات دعوةعبد الله بن ياسين التي بدأها وحده حتى أصبح الآلاف يحملون نفس الشعار ونفس الخطاب، فدل ذلك على نجاحها(26).

6- الأصول العلمية والفقهية التي ربى عليها أتباعه المرابطين:

يعتبر عبد الله بن ياسين من علماء أهل السنة والجماعة، مالكي المذهب، إستمد أصول فقهه من المالكية التي لها خاصيتها في الاستنباط واستخراج الأحكام رغم أنه كانت له اجتهاداته الخاصة التي أملتها عليه طبيعة دعوته التي عاشها، وتحرك بها وربى عليها أتباعه، ومن هذه الأصول مايلي:

أ – القرآن الكريم:

لقد نظر الإمام مالك رحمه الله إلى القرآن أنه قد شمل كل أمور الشريعة، وهو عمدة الدين يجب الأخذ والتصديق به لفظاً ومعنى، ظاهره وباطنه ومفهومه، ولم تكن نظرته إليه كنظرة الجدليين والمتكلمين، لذا اعتبر من قال بأن القرآن مخلوق زنديق وجب قتله،كما لم يعتبر الترجمة قرآناً يتلى تجوز الصلاة به(27).

وبناءً عليه فإن القرآن الكريم قد شكل عند عبد الله بن ياسين وأتباعه المرجعية العليا يجب الإذعان والتسليم لكل ما جاء فيه، وأمَّا كل ما تعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق فالقرآن لم يفرق بينها، فكلها تتضمن كلمات الله الهادية إلى أقوم سبيل، والمحذرة من كل ضلالة وغي، فكان هو وأتباعه على بينة من ربهم وبصيرة من دينهم، فلم تتحير عقولهم وترتاب قلوبهم نحو أي معتقد أو خلق أرشد إليه القرآن الكريم لإيمانهم العميق بقوله تعالى:﴿**لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾(28).

وكان تدبر القرآن الكريم معيناً لابن ياسين وفقهاء المرابطين في استنباط الأحكام الشرعية، وهم الذين فهموا بأنه لم ينزل ليتلى على الأموات، بل ليعمل به الأحياء

لينالوا به رحمة الله إتباعاً لقوله تعالى:﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[29].وعليه كان التمسك بكتاب الله عز وجل هو من أسباب قوة المرابطين، وتمكين الله لهم ولدولتهمالتي حكمت بلاد المغرب والأندلس،وامتد حكمها قرابة القرن من الزمن من سنة(448هـ .542هـ/1148.1056م)[30].

ب – السنة النبوية:

اعتمد ابن ياسين على السنة النبوية في استنباط أحكام الشريعة الإسلامية، وألزم نفسه وأتباعه بمنهج الله تعالى، فالسُّنة عنده هي المنهج المفصل لتعاليم الإسلام وتطبيقه، وتربية النفس والأمة عليه والذي يتجسد في قوله تعالى:﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾[31].

فالقرآن الكريم هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام وعقائده وعبادته وأخلاقه ومعاملاته، والسُّنَّة هي البيان النظري والعملي للقرآن في كل ذلك، وقد رأى ابن ياسين وزعماء المرابطين وجوب إتباع الرسول(ρ)في أقواله وأفعاله وتقريراته عملاً بقوله تعالى:﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾(32).

وقد جعل طاعة الرسول من طاعة الله تعالى:﴿**مَّنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾[33].وأمرهم بإتباع الرسول في كل ما أمر ونهى التزاماً بقوله تعالى:﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُواْ**﴾[34].وأمرهم بالاستجابة لدعوته واعتبر ما يدعوهم إليه هو النجاة:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾(35).

وهناك الكثير من الآيات التي تحث على إتباع الرسول الكريموالاقتداء به سعى ابن ياسين لتحقيقها في حياة المرابطين، الذين ظهرت أثار التزامهم بسنة

النبي(ρ) في كل مناشط حياتهم، في التعلم والتزكية والجهاد والسياسة وغيرها من الأمور التي أقاموا على أساسها دولتهم[36].

ج - عمل أهل المدينة:

فالمدينة هي دار الهجرة وبها تنزل القرآن وأقام رسول الله(ρ) وأصحابه بها، وأهلها همأسبق الناس بالتنزيل، وبما كان من بيان رسول الله(ρ)، ولهذا رأى المالكيون أن عملهم بالاقتداء بعلماء أهل المدينة في أقوالهم وأفعالهم حجة، وقدمَّوا ذلك على القياس وعلى خبر الحديث الواحد، وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث بن سعد الفقيه المصري:« إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن»[37].

وقد اهتمت المدرسة المالكية المغربية السنية عموماً بهذا المنهج، وسار عبد الله بن ياسين وفقهاء الدولة المرابطية عليه، ولم يرضوا بغيره بديلا.

د -قول الصحابة:

حيث جعل المالكية قول الصحابي الذي لا يعرف له مخالف حجة، واعتمدوا في ذلك على ما ذكره الإمام مالك في الموطأ، حيث اعتمد في الكثير من فتاواه على العديد

من أقوال الصحابة الذين هم أعلم بالتأويل.

هـ- المصالح المرسلة:

اعتبرها المالكية دليلاً شرعياً ومارسوها ممارسة عملية في الحياة، وأصَّلوا لها أصولاً في جلب المنفعة ودفع المفسدة، وقاسوا بها الأمور التي لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، والمقاصد إما ضرورية كحفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وإما حاجية تؤدي إلى رفع الضيق والمشقة، وإما تحسينية تتعلق بمكارم الأخلاق.

و- القياس وسد الذرائع:

فأما القياس فيعد من الأصول المنهجية التي سار عليها عبد الله بن ياسين وربى عليها أتباعه، وسد الذرائع فقد سار عليه ابن ياسين في منهجه في تأصيل أصول فقه مذهبه، وسار على نهج فقهاء المالكية في الاقتداء بالإمام مالك رحمه الله الذي كان الأكثر في العمل بسد الذرائع حتى اعتبر بعض العلماء العمل بها من خصوصيات مذهبه(38).

7- السياسة التي اتبعها ابن ياسين في سبيل تحقيق أهدافه:

اعتقد عبد الله بن ياسين أن قبائل الملثمين خرجت عن تعاليم الكتاب والسنة، وما دامتقد أحلت ما حرم الله وظَّلت على تقاليدها القديمة كان لزاماً عليها أن تدخل في زمرة المرابطين، فتنضوي تحت لوائهم وتدخل في دعوتهم، وأن تتطهر من آثامها وتسلم إسلاماً جديداً، وأن تبايع على الكتاب والسنة، وتعمل على إحياء تعاليم الإسلام ونشر مبادئه.

وكان على كل فردٍ يريد أن يدخل في زمرة المرابطين، أن يخضع للالتزامات القاسية التي فرضها عبد الله بن ياسين على أتباعه في رباط السنغال. وهي أن يكفر المريد عن خطاياه السابقة ويحاسب عليها، فيضرب بالسياط حد السارق والزاني وشارب الخمر؛ أما من سالم وأسلم وتطهر راضياً فله ما للمرابطين وعليه ما عليهم، أما من أبى واستكبر فليس له إلا السيف يحكمه المرابطون في عنقه(39).

وكان ابن ياسين يجمع الخارجين عن دعوته من المعاندين والمشركين ويحكم السيف في رقابهم، وربما كان مضطراً إلى اتخاذ مثل هذه الإجراءات، وأنه لم يعمد إليها حباً في إراقة الدماء وإنما من أجل أهداف سامية عزم على تحقيقها

بالسلم أو بالحرب، وهو ما لم يعجب معلمه الأول الفقيه وجاج بن زللو الذي أخذ عليه إفراطه في إراقة الدماء وعمله على فرض الإسلام بالسيف(40).

فهو لم يتصور أن تلميذه الفقيه المربي سيتجاوز هذا الدور وسيصبح صاحب رسالة ومذهب في الحياة، كما أنَّ عمده إلى السيف كان بعد أن خابت سياسة المسالمة، ولخوض ميدان الجهاد في سبيل نشر الإسلام، ورفع راية الملثمين وإتمام وحدتهم، ولم ينكر ابن ياسين استعمال هذه السياسة من أجل تحقيق أهدافه(41).

وفي إعتقاده كان ابن ياسين يظن أنه حين لجأ إلى القوة لم يأثم ولم يخطئ، فقد كتب إلى معلمه يقول: (أما إنكارك علي ما فعلت، وندامتك على إرسالي، فإنك أرسلتني إلى أمةٍ كانت جاهلية، يخرج أحدهم ابنه أو ابنته لرعي السوام، فيعزبان في المرعى، فتاتي المرأة حاملاً من أخيها ولا ينكرون ذلك، وليس دأبهم إلا اغارات بعضهم على بعض، وقتل بعضهم البعض ولادِيَةَ عندهم من الدماء، ولا حرمة عندهم للحريم ولا توقى بينهم في الأموال، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم، فمن قبل واليته، ومن تولى أرديته، وما تجاوزت حكم الله ولاتعديته. والسلام)(42).

كما أن عبد الله بن ياسين لم يحكم السيف وحده، بل كان يلجأ إلى وسائل أخرى لتأليف قلوب المسلمين الجدد وترغيبهم في الدعوة الجديدة حتى يؤمنوا بها إيماناً صادقاً، كإسقاط المغارم والمكوسوالغاء الضرائب الجائرة التي كان يفرضها الحكام على الرعية، واكتفى بما أوجبه الشرع في ذلك من زكاة وعشر، وفرض على الأغنياء الصدقات للفقراء(43)، وقسَّم الغنائم والأسلاب فجعلها فيئًا للمرابطين، وأقام بيت مال للمسلمين(44).

ولم يغفل ابن ياسين أمرالدعاية للدولة الجديدة ونشرأخبارها بين الناس، فكان يبعث أموال الزكاة والأعشارإلى طلبة المصامدة[45]،وفقهائها وقضاتها ومحتاجيها هذا من جانب،ومن جانب آخرفقد واصل رسالته في تعليم الناس حتى خلق في الصحراء جواً من العلم والمعرفة،وأدى ذلك إلى خلق جيل من الفقهاء الصنهاجيين عرفوا بالصلاح والورع والتقوى من أمثال العالم الفقيه لمتاد بن نصير اللمتوني الذي كان يضرب المثل بفتياه فيالصحراء[46]،وميمون بن ياسينالصنهاجي اللَّمتوني الذي رحل إلى الأندلس محدثاً وراوياً، بل إن أمـراء
المرابطين أنفسهمقد أخذوا بنصيب وافرمن العلم الذي بثه عبد الله بن ياسين بينهم[47].

وبهذه السياسة استطاع ابن ياسين أن يسمو بالمرابطين الذين كانوا يعيشون في بيداء الجهل،ويعتمدون على السلب والنهب إلى عصبة مجاهدة غايتها الدفاع عن الدين الإسلامي وديارة وأهله.

وبفضل هذه الصفات الشخصية التي كان يتمتع بهاوسيرته الطيبة، واصطناع التقشف وإذلال النفس بكثرة الصيام[48]،وقوة الحجة،والقدرة على التأثير في سامعيه وعلمه الغزير، تمكن ابن ياسين من قلوب أصحابه، وليس غريباً أن ينظر إليه المرابطين كفقيه مصلح أو زعيم، بل نظروا إليه على أنه ولي من أولياء الله وأخذوا ينسبون إليه الخوارق والمعجزات، تحفظ أجوبته وفتاويه فلا يعدِل القوم عنها، وظَّلُّوا بعد وفاته لا يقدمون أحداً للصلاة ممن لم يصلي خلفه ونعم بصحبته[49]، وظَّل قبره يحج إليه الناس من كافة الجهات متبركين به[50].

وكخلاصة لهذا المقال نقول أن اختيار عبد الله بن ياسين للقيام بدعوة المرابطين كان موفقاً إلى حد كبير، كونه أعرف الدعاة بلغة وعادات وأعراف قومه، لذا نجده قد سار في دعوته لقبائل الملثمين الصنهاجية سيرة حسنة نقية، فتدرج بهم من مرحلة التعريف بالإسلام إلى مرحلة التكوين، ثم التنفيذ الممهد لمرحلة

التمكين، الذي تحقق بعد استشهاده على يد الأمرين أبو بكر بن يحي اللمتوني، والقائد يوسف بن تاشفين وأبنائه من بعده، الذين واصلوا من خلال فتوحاتهم في بلاد المغرب وجهادهم بالأندلس، دورهم في دعم المسلمين وتثبيت الإسلام بهاته المناطق.

---

(1) البكري، أبي عبيد،**المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**.دارالكتاب الإسلامي القاهرة.د(ط٨ س). ص165./ ابن الخطيب،لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد،**الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تص: البشير الفورتي، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ط1، د(س). ص9./الصلابي، علي محمد، **صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي**، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، سنة2007. ص153.

(2) الإمام الكبير العلامة أبو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن أبي حاج البربري الغفجومي نسبةً إلى غفجوم بطن من زناته،وهو شيخ المالكية بالقيروان، وتلميذ أبي الحسن القابسي، دخل الأندلس وأخذ عن عبد الوارث بن سفيان، وحج عدة مرات،وأخذ علم الكلام ببغداد عن ابن الباقلاني، وقرأ على الحمامي، وكان إماماً في القراءات، بصيراً بالحديث، رأساً في الفقه، تخرج عنه خلق كثير في المذهب، توفي فيالثالث عشر رمضان سنة ثلاثين وأربع مئة وله اثنتان وستون سنة. أنظر:**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، للإمام الحنبلي الدمشقي، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، سنة1979. ج5، ص153.

(3) بلدة نفيس: من بلاد السوس تقع قرب أغمات (بالمغرب الأقصى) يسكنها قبائل من البربر أكثرهم من المصامدة، كانت موجودة أيام البكري وقد ذكرها في كتابه (**المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**)، ص160.أنظر: الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد.**الاستقصا لدول المغرب الأقصى**،تح:ولدي المؤلف جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، طبعة1954.د(ط).ص6.

(4) النويري شهاب الدين، **نهاية الإرب في فنون الأدب**، تح:عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة2004، ج24، ص140.

(5) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص ص7.5./ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، **الكامل في اللغة والأدب**، تح:محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط2، عام1993م. ج8، ص328./ ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسي.**الأنيس المطرب بروض القرطاس فيأخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**،تصحيح يوحنا تورنبرغ، طبعة أوبسالية،عام1917.د(ط). ص78.

(6) ابن الأثير أبي الحسن علي بن أبي الكرم الجزري، **الكامل في التاريخ**، مر: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة1987، ج8، ص328.

(7) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص7./ابن الخطيب، المصدر السابق، ص9./ابن عذاري المراكشي، أبو العباسأحمد بن محمد.**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح:إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3، سنة1983.ج4، ص8.

(8) ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص328./ النويري ،شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب،**نهاية الإرب في فنون الأدب**، تح:عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة2004، ج24 ، ص140.

(9) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص78.

(10) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص8.7.

(11) ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص328.

(12) ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص9.

(13) سورة آل عمران، الآية: 142.

(14) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.78.

(15) نفس المصدر، ص79./الناصري، المصدر السابق، ج2، ص8.7.

(16) الناصري، نفس المصدر، ج2، ص8.7./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.

(17) ابن أبي زرع، نفس المصدر، ص79.

(18) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص8.

(19) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.

(20) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص9.8./ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.

(21) نذكر هنا أن رسول الله(ρ)حين بدأ الدعوة لوحده ولاقى من الصعاب ما لا يعد ولا يحصى، لكن وبفضل من الله عز وجل صارتالدعوة جماعية، وتأسست الدولة الإسلامية بالمدينة.وهنا نلاحظ التشابه بيندعوة نبي العزةعليه الصلاة والسلام، ومسار دعوة ابن ياسين.

(22) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص9./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.

(23) سالم أبو القاسم محمد غومة، رسالة ماجستير، **تطور المؤسسة العسكرية في دولتي المرابطين والموحدين من(668.415هـ/ 1269.1059م)** . جامعة ليبيا ، سنة(2004.2003م)، المقدمة: ص(ح. ط).

(24) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص9./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص80.

(25) الناصري، المصدر السابق، ج2، ص10.9./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص80.

(26) عبد العالي بلامين، رسالة جامعية بعنوان، **مواقف المرابطين في دفع بغي السلاطين**،جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، المملكة المغربية .(1426هـ/2005 م)، ص15.14.

(27) علي الصلابي، المرجع السابق، ص172.

(28) سورة فصلت، الآية:42.

(29) سورة الأنعام، الآية:155.

(30) علي الصلابي، المرجع السابق، ص ص174.172 بتصرف.

(31) سورة آل عمران، الآية:164.

(32) سورة النساء، جزء من الآية:59.

(33) سورة النساء، جزء من الآية: 80.

(34) سورة الحشر، جزء من الآية:07.

(35) سورة الأنفال، جزء من الآية: 24.

(36) علي الصلابي، المرجع السابق، ص185.184.

(37) القطان مناع، **تاريخ التشريع الإسلامي (التشريع والفقه)**، مكتبة المعارف، الرياض، ط2، سنة1996، ص353.

(38) علي الصلابي، المرجع السابق، ص ص186.185.

(39) حسن محمود،**قيام دولة المرابطين(صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى)**، دار الفكر العربي،القاهرة. د(ط ٨ س).ص155.

(40) النويري، المصدر السابق، ج24، ص42 ./ حسن محمود، نفس المرجع، ص156.

(41) حسن محمود، نفس المرجع، ص156.

(42) النويري، المصدر السابق، ج24، ص143.142.

(43) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص82./ ابن خلدون، عبد الرحمن،**تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، سنة1999. ج6، ص184.

(44) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص80.

(45) حسن محمود، المرجع السابق، ص158./ ابن أبي رزع، نفس المصدر، ص81.

(46) القاضي عياض، بن موسى بن عياض السبتي. **ترتيبالمدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**،تح:محمد بن تاويت الطنجي،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب،ط2، سنة1983.ج8، ص80./ دندش، عصمت عبد الطيف، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، سنة1988ص144.

(47) حسن محمود، المرجع السابق، ص158.

(48) البكري، المصدر السابق، ص168./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص84.

(49) البكري، المصدر السابق، ص169./ حسن محمود، المرجع السابق، ص166.165.

(50) دفن ابن ياسين بمكان يسمى كريفلة بتامسنا، ولكن يبدوا أن الموحدين قد أخفوا معالمه انتقاماً منه، لكنهم لم يستطيعوا أن يخفوا سيرته التي ظَّلَّ الناس يتناقلونها جيلاً بعد آخر. أنظر: حسن محمود، المرجع السابق، ص166.